بحث عام | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 10 أغسطس 2016

التجربة الصينيّة
في الفكر العربي المعاصر

مونيس بخضرة
باحث جزائري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن أبرز التحاليل الفكرية التي قدّمها المفكرون العرب للعلاقات القائمة بين العرب والصين، والكيفية التي يمكن الاستفادة بها من النهضة الصينية، مع الوقوف على أفق التواصل الفكري والثقافي بينهما.

على سبيل الاستشكال: سبق لرواد النهضة العربية خلال القرنين الماضيين أن انطلقوا من سؤال مركزي هو عنوان لكتاب (شكيب أرسلان) لماذا تأخرنا وتقدّم غيرنا؟ وتقريباً جاءت كلّ المساعي الفكرية العربية حينها لتجيب عنه، وعلى هذا المنوال نفسه سار بعض المفكرين العرب المعاصرين من خلال إعادة قراءتهم للتجارب النهضوية لمجتمعات كانت المجتمعات العربية تتقاسم معها الحالة الحضارية نفسها، إلا أنّها نجحت في أن تحدث نهضتها المنشودة على غرار تجربة تركيا وكوريا الجنوبية والصين والنمور الآسيوية، وعليه ذهب هؤلاء المفكرون إلى أبعد من ذلك للوقوف على مدى قابلية الشعوب العربية لأيّة حداثة ممكنة وعلى طرق نشوء حضارات مماثلة بوتيرة متسارعة.

أمّا منهج الدراسة، فغالباً ما يحدد الموضوع المنهج الذي نعتمده في إنجازه، وعليه سنعتمد على المنهج التحليلي المقارن، بما أنّنا أمام مجتمعين مختلفين يعيشان حالتين متباينتين، كما سنعتمد أيضاً على المنهج التاريخي أثناء السرد التاريخي للمحطات الزمكانية التي مرّا بها.

التمهيد:

الاهتمام بالتجربة الصينية في أبعادها المختلفة لم يكن مقتصراً على الاقتصاديين وخبراء التنمية والسياسيين فقط، بل كان حاضراً أيضاً بقوة في أعمال المفكرين العرب على مرّ العصور، ولا سيّما المعاصرون برغم تباين مرجعياتهم الفكرية، إلا أنّهم يتفقون على مدى نجاح المشروع الحداثي الصيني وعمق تحولاته وتأثيره الشديد على المجتمعات الناشئة التي تخوض معركة النهضة والتحديث بما فيها المجتمعات العربية. إذ تُعدّ النهضة الصينية الحديثة في نظر النخبة العربية المفكرة نموذجاً وأيقونة يجب فهمها وتحليلها حتى نعرف مكامن القوة والضعف فيها والاستفادة منها، لعلها تساعدنا على سلك الدروب النهضوية التي اعتمدتها، والأخذ بها في اعتماد مسالك التنمية العربية. إلا أنّ ما ميّز اهتمام المفكرين العرب بالتجربة الصينية هو وقوفهم على العوامل الثقافية والدينية والتاريخية التي ساعدت الصينيين على تحقيق نهضتهم، من خلال فهم منطق الوعي الصيني الذي ساهم في إنجازهم الحضاري وتخطّيهم لشتى العراقيل التي كانت عائقاً أمام تطورهم. ولعلّ من أبرز هؤلاء المفكرين الذين وقفوا على التجربة الصينية، نجد المفكر «فهمي هويدي» و«هالة عمر» و«شوقي جلال» و«محمد رمضان حسين» و«صباح ممدوح» و«إبراهيم نافع» و«عبد الحميد سليم» و«محمد غريب جودة» وغيرهم من المهتمين بالتراث والتحول الصيني. يأتي اهتمامنا بموضوع هذا البحث انطلاقاً من الحاجة الماسّة إلى فهم منطق انفتاح النخبة العربية على التجربة الصينية، سواء تعلق الأمر بظاهرة التحديث وتسارعه في المجتمع الصيني، أو بظواهر أخرى انفرد الفكر الصيني في بلورتها على طرازه الخاص، كمفهوم الإنسان والعمل والزمن والأسرة والمجتمع والدولة وغيرها من المواضيع المماثلة، من خلال الوقوف على كتابات ومواقف النخبة العربية منها، مستخلصين طرق تعاملهم معها وكيفيات تقييمهم لها، وهذا الذي جعل هذا البحث تغلب عليه الانتقائية والتركيز على جوانب أساسية دون أخرى.

الصين ومنعطف التحديث الكونفشيوسي

جرى توظيف مفهوم التحديث تاريخياً ليحلّ محل مفهوم التغريب ولتثبيت الدلالة العالمية لعملية التحديث ولمكوناته، وعلى الرغم من أنّ عملية التحديث نشأت أصلاً في أوروبا الغربية إلا أنّها أحدثت تحولاً عميقاً في بقية العالم ومنها مجتمعات آسيا المعاصرة.

إنّ المغزى الرئيس لحركة التحديث في المجتمع الصيني، قام على مبدأ تحديث الإنسان الصيني، بما أنّ الإنسان هو ركيزة تحديث المجتمع الذي يتحقق تحديثه من خلال أنشطته وسلوكاته ونظامه. إذ يُعدّ تحديث الإنسان بمنزلة الشرط الأساس لتحديث المجتمع وبالتالي الدولة. فالكثير من الأبحاث تؤكد على أنّ الإنسان هو أهم عامل في حركة التحديث والعصرنة، ومن دون تحديث الإنسان تبقى برامج تحديث العلوم

والتكنولوجيا والبنيات الاقتصادية والسياسية مستحيلة، كما تصبح في أغلب الأحيان المفاهيم والأفكار الثقافية التقليدية المتراكمة في التكوين العميق لسيكولوجية الناس وطرق تفكيرهم واتجاه قيمهم عقبات مانعة لتحقيق تحديث المجتمع[1].

تتطلب عملية التحديث الاجتماعي الشامل تحولاً في الخصائص السيكولوجية والثقافية للإنسان، وهذا ما اعتمدته الصين في استراتيجياتها التنموية، بما أنّ تحديث الإنسان يكون غالباً من خلال تغيير رؤيته التقليدية للأشياء، والذي يساعده على عصرنة تصوراته وأحكامه ومواكبته للثقافة الاجتماعية الحديثة، وهو تغيير يُعدّ تطوراً أساسياً لطبيعة الأمّة والفكر الثقافي للمجتمع، وهو تغيير يتسم بالشمولية والكليّة بدءاً من السيكولوجية الاجتماعية ومنظومة المعاني والمفاهيم الثقافية، ومفهوم القيم، والفكر الأخلاقي وطرق التفكير والفهم، والتي تمكّن من تكوين الشخصية والجوانب الأخرى فيها. وقد استمرّت حركة التحديث في الصين طيلة مائة سنة، وفي خلال هذه الفترة ولاسيما في الخمسين سنة التالية من تأسيس الصين من القرن الماضي، حيث طرأت على ملامح المجتمع الصيني تغييرات كثيرة في غاية العمق[2].

ومن الأهمية بمكان فيما يتعلق بمشروع تحديث المجتمع الصيني، أنّ المصطلح الصيني «للحداثة» هو «شيا ندي هوا» وهو مصطلح جاء بتأثير من الحوار الفكري في المجتمع الياباني المجاور، وتمّت صياغة هذا المصطلح خلال ثلاثينيات القرن العشرين على مدى سلسلة من الحوارات تناولت قضايا استراتيجيات التطوير والتحديث، والتي نظمتها أكثر الصحف الصينية تأثيراً آنذاك، وهي صحيفة «شن باو» «shenbao» التي تركّزت حواراتها على المواضيع الثلاثة: الزراعة أم الصناعة، والاشتراكية أم الرأسمالية، والثقافة الصينية أم التعليم الغربي؟ وكان الهدف من هذه الحوارات هو إيجاد الأولوية في محاولة الصين اللحاق بالقوى الاستعمارية الغربية بما فيها اليابان. وقد خلقت هذه الحوارات خطاباً غنياً مميزاً في تاريخ الفكر الصيني الحديث يغلب عليه النقاش والجدّة.

يعتبر المفكر الصيني «تووي منج» أنّ الزعم الذي يرى أنّ حداثة شرق آسيا وثيقة الصلة بالفهم الذاتي للغرب الحديث هو زعم قائم على سبب افتراضي، ويقضي هذا الزعم بأنّه إذا كانت عملية التحديث يمكنها أن تتخذ أشكالاً ثقافية مغايرة لتلك التي في الغرب، فهذا يشير بوضوح إلى أنّه لا التغريب ولا الأمركة ملائمان لتشخيص الظاهرة. زد على هذا أنّ أشكال التحديث في شرق آسيا يمكن أن تفيد الباحثين الدارسين للتحديث لتطوير تقييم أكثر اختلافاً ودقة عن الغرب الحديث[3].

1- ووبن، **الصينيون المعاصرون، التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي**، ترجمة عبد العزيز حمدي، عالم المعرفة، العدد 210، 1996 الكويت، ص 267

2- المرجع نفسه، ص 268

3- لورانس هارزون وصمويل هنديغتون، **الثقافات وقيم التقدم**، ترجمة شوقي جلال، المركز القومي للترجمة، العدد 2/535ط2، 2009، القاهرة، ص 432

سبق لهيجل في فلسفة التاريخ أن ردّ الكونفشيوسيّة وكلّ الثقافات غير الغربية إلى فجر التاريخ وبداية الروح، والممارسة العامة في الصين الثقافية لتحديد الأخلاق الكونفشيوسيّة هي إقطاعية، ويتمثل وجه الاختزال في هذه الأطروحة أنّ مشروع التنوير كما عبّر عنه سؤال كانط: ما هو التنوير؟ إنّما كان عملياً تأكيداً على أنّ التراثيات الثقافية خارج الغرب، وبخاصة الصين الكونفوشيوسيّة إنّما طورت مجتمعاً منظماً دون الاستعانة بدين قائم على الوحي، وهو صورة ناصعة عن الخروج من القصور الذاتي الذي عبّر عنه كانط في مشروعه الأنواري.

يركز هيجل في دراسته لتاريخ الصين على أهمّ الميزات والخصائص الجوهرية لهذه الإمبراطورية، قصد معرفة الطابع العام لروح التاريخ في هذه المرحلة، ومنها الوحدة الجوهرية. إذ يرى أنّ المبدأ العام لروح الشعب الصيني هو الوحدة المباشرة للروح الجوهري للشعب وللفرد، والذي يتجلى في روح العائلة. فالدولة في الصين تسيطر عليها روح الأسرة. فالصينيون في نظر هيجل ينظرون إلى أنفسهم على أنّهم ينتمون إلى أسرهم وعائلاتهم وفي الوقت ذاته أبناء للدولة. والأسرة بمعناها الواسع في الصين هي الدعامة الكبرى التي عملت على استمرار التراث الأخلاقي عندهم، حيث ظلّ الأبناء يتوارثون عن آبائهم القانون الأخلاقي جيلاً بعد جيل، حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الحقيقية للمجتمع الصيني[4].

وفي الموضوع نفسه، علّل الفيلسوف الألماني «يورغن هابرماس» أنّ ما حدث خلال القرن التاسع عشر عندما شملت ديناميكيات الغرب الحديث كلّ العالم عبر مسيرة قلقة على طريق التقدم المادي، لم يكن تحديداً نتيجة إنجاز وتطبيق مباشر للتنوير. وفي السياق نفسه، اشترك كلٌّ من «هيجل» و«ماركس فيبر» في الاعتقاد بأنّ الغرب الحديث على الرغم من كلّ مظاهر القصور، هو الخيار النموذجي للتقدم، حيث يمكن لبقية مجتمعات العالم أن تتعلم منه. إنّ ازدهار الروح، أي عملية الحتمية التاريخية، أو القفص الحديدي للحداثة، إنّما كان في جوهره إشكالية أوروبية في الأساس، ولكنّ شرق آسيا الكونفشيوسي، والشرق الأوسط الإسلامي، والهند الهندوسية، وجنوب شرق آسيا البوذي، كانوا جميعاً عند الطرف الأخير لهذه العملية، وإنّ التحديث كعملية تجنيس سيؤدي في النهاية إلى جعل التنوع الثقافي لا فعالية له إن لم يجرده من أيّ معنى أو قيمة، ولم يكن من المتصور أبداً أنّ الكونفشيوسيّة، أو في موضوعنا هذا أيّ تراث روحي آخر غير غربي، يمكن أن يؤثر في تشكيل عملية التحديث، ولهذا ساد الاعتقاد بأنّ التطور من التقليدي إلى الحديث تطور حتمي ولا رجعة عنه.

في بناء نموذجها الحداثي اتجهت الصين الحديثة إلى إحياء التعاليم الكونفشيوسيّة كإيديولوجية سياسية واعتمادها كمرجع ثقافي وأخلاقي وتربوي، نظراً لما تحتويه من نظم قيمية وأسرية خاصة. والجدير بالذكر أنّ التراث الكونفشيوسي الذي تمّ تهميشه في الصين لعدة عقود، باعتباره صدى بعيداً للماضي الإقطاعي،

4- مونيس بخضرة، **تاريخ الوعي «مقاربات فلسفية حول جدلية ارتقاء الفلسفة بالواقع»**، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2009، ص 265

انقطعت صلته بقاعدته المؤسساتية الإمبراطورية. ولقد ظلت الإيديولوجيا السياسية الكونفوشيوسيّة عنصراً فاعلاً في تطور بلدان شرق آسيا، ونظراً لأنّ الخط الفاصل بين شرق آسيا الرأسمالي والاشتراكي بدأ يُمحى، فإنّ الشكل الثقافي الذي يمرّ عبر خط التقسيم أضحى يتجلى كخط كونفشيوسي الطابع على نحو مميز.

عادت الصين في تجربتها الحداثية إلى الاستثمار في الإرث الكونفشيوسي، بما أنّه غني بالثقافة الاقتصادية والقيم الأسرية والأخلاق التجارية، وكم هو يسير تفسير هذه العودة لتبرير بعدها الحداثي، حتى القول إنّ التعبير الكونفوشيوسي ليس إلا ضرباً من الفكر البعدي، وتظهر الحداثة الصينية في ظلّ نفوذ التراث الكونفشيوسي الذي يهيئ رؤية متسقة عن نظام الحكم والقيادة.

وفي الطرح نفسه يعتقد «توي- منج» أنّ الحداثة الكونفشيوسيّة ترفض بحسم الزعم القائل إنّ التحديث في جوهره هو تغريب أو أمركة، ويؤكد أنّ نجاح شرق آسيا الكونفشيوسي في التحول للتحديث الكامل دون التغريب الكامل يشير بوضوح إلى أنّ التحديث يمكن أن يتخذ أشكالاً ثقافية مختلفة، لهذا فإنّه من المتصور أن يجري تحديث في الصين وفقاً لنهج خاص مميز دون محاكاة كاملة لا للغرب ولا لشرق آسيا. والحقيقة أنّ مجمل شرق آسيا الكونفشيوسي قدّم إلهاماً محفزاً للتحديث في الصين ولبعض الدول المجاورة، وهذا البروز ينزع الشكوك عن إمكانية قيام حداثات متعددة في مجتمعات أخرى مماثلة، في إفريقيا ووسط آسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط، وقيام الحداثة في أنحاء العالم[5].

التجربة الصينية في أعين المفكرين العرب المعاصرين

اهتمّ المفكرون العرب كغيرهم من مفكري العالم بالظاهرة الصينية وتصاعد مدّها التحديثي، من جوانب مختلفة. فمنهم من وقف على تحليل شقها الاقتصادي وقراءة مؤشرات نموها المتسارع، والبعض الآخر وقف على قراءة بنيتها الاجتماعية وتماسك مكوناتها الفئوية والفردية، وتلاحم طبقاتها الشعبية في إطار تنظيمي واضح، والبعض اهتمّ بتحليل إرثها الثقافي والديني والتربوي وتداخله مع الثقافات المجاورة، والبعض الآخر وقف على تفكيك الأطر السياسية التي تنتهجها الصين المعاصرة وجدلها مع السياسات المناوئة لها، خاصة منها الغربية واليابانية أو ما يعرف بالقراءات الاستراتيجية للمجتمعات، والآخرون اهتموا بالتراث الفني والجمالي والمعماري للصين عبر الحقب التاريخية التي مرّت بها، إضافة إلى باقي المجالات الأخرى التي عرفت بها الصين، وهذا ما يؤكد على ثراء المجتمع الصيني وغنى تاريخه وخصوبة أفقه، والتي جعلت من مسارها الحضاري نموذجاً يبعث على الإعجاب والاهتمام.

5- لورانس هارزون وصمويل هنتنغتون، **الثقافات وقيم التقدم**، ص 443

المتفحص لأعمال النخب العربية المعاصرة المتعلقة بالتجربة الصينية، يكاد يجد هيمنة الدراسات التي تكشف عن علاقة المسلمين تاريخياً بالصين التجارية والثقافية، وأيضاً بالفتوحات الإسلامية لأرض الصين على حساب المواضيع الأخرى.

وصف الكاتب «إبراهيم نافع» الصين في كتابه «**الصين في نهاية القرن العشرين**»، أنّها نهضة تنفجر في الشرق، وهي ترتبط في المخيال العربي بالأساطير والرياضات القتالية، وبرموز التنانين والمهرجانات الشعبية السنوية وتعدد الأديان والإرث الثقافي والديني الضارب في عمق تاريخها، إضافة إلى كثافتها السكانية ونمو اقتصادها السريع، وهي كلها ميزات نافست بها القوى العالمية الأخرى الأكثر حضوراً في الوعي العربي المعاصر على غرار الدول الأوروبية وأمريكا واليابان، ويفسّر «إبراهيم نافع» هيمنة الدين على الوعي الصيني كأمّة وثقافة وتاريخ مقارنة بحضور القوى الأخرى لعدة اعتبارات، لعل أبرزها هو شساعة أراضيها التي هي بمثل قارّة، والأهم من كلّ هذه الميزات هو أنّها شكّلت لغزاً محيراً ومذهلاً للعقل العربي نتيجة سرعة نموها اللامحدود، إلى أن صارت مورد العالم بأجمعه بمصنوعاتها ومزروعاتها وحتى باليد العاملة[6].

كما يؤكد أيضاً على أنّ العالم بأسره لم يعرف حضارة بنقاء الحضارة الصينية وانغلاقها على نفسها لعدة عصور، ومحافظة على إرثها الثقافي والديني وعلى خصوصيتها الذاتية. إذ تُعدّ من أقدم حضارات المعمورة وأعرقها، وكان لها تأثير شديد على المجتمعات المجاورة بأديانها وفنونها وصنائعها، كما كانت السباقة في خلق السياقات المعرفية والعلمية والفنية منذ فجر التاريخ مثلما أشار إلى ذلك «هيجل». فعرف الصينيون البحث المبكر في الطبيعة والكون، وقد تميزت حضارتهم بالانسجام كوحدة متناسقة الأجزاء وبالطبيعة وبمحاولة فهم ألغاز الكون والوجود كله، وهذا هو الهدف الذي سعى إليه الصينيون ببنائهم لسورهم العظيم، كحصن يحفظ مكتسباتهم وحتى لا تنصهر مع ثقافات الغير.

وفي قراءته لرؤية الصيني للمورد الثقافي، يؤكد «إبراهيم نافع» أنّ الصيني لا يعتبر الثقافة غاية في ذاتها، بقدر ما هي أداة لتطوير العلوم والمعارف والأخلاق وإثرائها، والتي بدورها تساهم في بناء حياة فاضلة ومنسجمة، وشأنها شأن المعرفة التي هي الأخرى ليست مطلوبة لذاتها بل من أجل بلوغ الحكمة.

وفي تفحصه لتاريخ الصين الثقافي، يرى أنّ التراث الصيني يحتوي على الكثير من التيارات الفكرية والدينية، أشهرها الطاوية والكونفوشيوسيّة. أمّا مذهب الطاوية، فهو مذهب يعود إلى 2500 سنة (ق. م)، وقد وضع فيه مؤسسه «لوتسو» فلسفة الحياة اليومية وتفاصيل العيش المطلوب والهادئ، ومعرفة أعماق النفس والروح والعالم، كما قدّم أراء متنوعة عن خبرة الحياة. فالذي ينكمش مثلاً لا بدّ أن يتمدد أو ما يعرف في الفلسفة الغربية بفن الجدل أو الديالكتيك (أفلاطون وهيجل وماركس). ويُعدّ البحث عن دروب الحكمة

6- إبراهيم نافع، **الصين في نهاية القرن العشرين**، ط1، 1999، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ص 05

وتفاصيلها وطرق تجنب المعاناة والآلام سمة المعرفة الصينية. كما يشهد للعقل الصيني أنّه كان سباقاً في حياكة الحرير الطبيعي الذي ظلّ منذ القدم علامة مسجلة باسمه، وقامت بمبادلته بسلع أخرى لا تنتجها، وبفضله تطورت الحركات التجارية وتشيدت طرق تجارية تُعدّ الأطول في العالم والتي عرفت تاريخياً بطريق الحرير، وعبرها سار عظماء الفاتحين مثل «الإسكندر المقدوني»، «وجينكز خان»، و«تيمور لينك»، و«ماركو بولو»، بما فيهم الراحلة العربي الشهير «ابن بطوطة» الذي وصفها في كتابه (**غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**) وصفاً دقيقاً[7].

وفي طرحه المختلف، يؤكد «إبراهيم نافع» أنّ الصين أعطت الكثير للعالم ولم تأخذ منه بقدر ما أعطت، مكتفية بما لديها فحسب، محتفظة بهويتها. وفي هذا الشأن يقول «أبو حيان التوحيدي» عندما سئل من أحد الوزراء: أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب؟ فقال: إنّ هذا السؤال سبق أن وجّهه «ابن المقفع» إلى أصحابه بطريقة أخرى هي: أيّ الأمم أكثر عقلاً؟ ولأنّه من الفرس فقد ظنّ أصحابه أنّه يريد الفرس في إجابتهم فأعطوها له، لكنه قال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قوم علموا فتعلموا، ومثل لهم فامتثلوا، وبدئوا بأمر فصاروا إلى اتباعه، وليس لهم استنباط ولا استخراج، فقالوا «لابن المقفع»: إذن الروم؟ فقال: ليس كذلك، بل هم أبدان وثيقة، وهم أصحاب بناء وهندسة ولا يعرفون سواهما ولا يحسنون غيرهما. فقالوا له: الصين، قال: أصحاب أثاث وصنعة[8].

والرأي نفسه استقاه من كتاب (**طبقات الأمم**) «للقاضي أبي القاسم صاعد الأندلسي» حين قال: إنّ الصين أكثر الأمم عدداً وأفخمها مملكة وأوسعها داراً، وحظهم من المعرفة التي برزوا فيها عن سائر الأمم إتقان الصنائع العلمية وإحكام المهن التصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب والتجديد في الأعمال وتحسين الصنائع[9].

ولم يكن هذا رأياً حكراً على العرب، بل حتى على الغرب الذي كان يراقب على مرّ الزمن تطور التجربة الصينية.

ويرجع «إبراهيم نافع» سرّ سرعة التقدم الاقتصادي في الصين إلى شساعة التبادلات التجارية في اتجاه القارات الأربع، خصوصاً نحو أمريكا أوروبا، وتقدّم الاستثمارات فيها بأرقام قياسية، وما جلبته من عائدات كبيرة، إضافة إلى ترشيد النفقات والتصرف الحذر والعقلاني تجاه قضايا العالم حتى لا تؤثر توجهاتهم السياسية على انفتاحهم الاقتصادي العالمي أو تتصادم معها.

7- إبراهيم نافع، **الصين في نهاية القرن العشرين**، ص 07

8- نقلاً عن إبراهيم نافع، **الصين في نهاية القرن العشرين**، ص 08

9- المرجع نفسه، ص 08

إضافة إلى الدور الريادي للصين في الاقتصاد، عندما لعبت ومنذ عقود من الزمن أدواراً أولى على الساحة العالمية بقدر كبير من الحنكة والمسؤولية والرشاد، وفي هذا الشأن قال الرئيس الصيني السابق «لي بنج»: لا يمكن للصين أن تطوّر نفسها بمعزل عن بقية أنحاء العالم[10]، وهو قول يعكس التوجّه العالمي الجديد للدولة الصينية المعاصرة.

وفي هذا الشأن قامت حكومات الصين المتعاقبة بحملات واسعة للترويج لسياستها الخارجية، تؤكد فيها ذاتها وهيمنتها وحضورها الفعال على المشهد الإقليمي والعالمي، وذلك في الوقت الذي تسعى فيه إلى تحقيق أهدافها الدولية بنشاط من خلال المنتديات والمنابر الدولية. خاصة بعدما نجحت الصين في استعادة جزيرة «هونج كونج» عبر الطرق السلمية والمفاوضات الديبلوماسية وهي عملية سياسية كبيرة، واستقرار السياسة الصينية ونشاطها يزيد من الإسهام الإيجابي من جانب «بيجين» في القضايا الدولية.

ففي الوقت الذي كانت فيه شعوب الأرض غارقة في الثقافة البدائية ولصيقة بالطبيعة، كان الصينيون يشقون حضارتهم بوسائلهم البسيطة وبخطوات متأنية إلى أن صارت اليوم ثاني قوة عالمية بعد الولايات المتحدة الأمريكية على أصعدة عديدة، بعدما شهد تاريخها عدة ثورات داخلية كانت آخرها الثورة الشيوعية بزعامة القائد «ماو تسي تونغ». كما يقف «إبراهيم نافع» على العلاقات الصينية العربية في مطلع نهضتها وحضورها الفعال في النظام العالمي، والتي دعمت الكثير من القضايا العربية في المحافل الدولية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، ومساندتها الثابتة لدول العالم الثالث، وخصوصاً بعد حصولها على مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي. وقد حظيت قضايا الشرق الأوسط والصراع العربي- الإسرائيلي باهتمام خاص لدى القيادة الصينية، فكانت عضوية الصين الدائمة في مجلس الأمن مصدراً للمساندة السياسية للدول العربية في قضاياها المصيرية، وكذلك دعمها اللامشروط للثورة الجزائرية ونيل استقلالها[11].

أمّا المفكر المصري «فهمي هويدي» الذي ناقش التجربة الصينية في أكثر من بحث، إلى درجة أنّه خصّص للعلاقات الإسلامية الصينية كتاباً قائماً بذاته بعنوان (**الإسلام في الصين**)، وقد خصّص فيه مساحة واسعة لتجربته الشخصية مع الصين، ولزياراته المتكررة لها، ولأحوال المسلمين الصينيين فيها، والمحطات التاريخية التي شهدها الإسلام في الصين، وتقصّي ثقافة مسلمي الصين والتعريف بهم وبإنجازاتهم ومآثرهم في الصين.

10- إبراهيم نافع، **الصين في نهاية القرن العشرين**، ص 153

11- المرجع نفسه، ص 178

يقول فهمي هويدي: وإذا صحّ التعبير فإنّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ ثمّة (ملفاً) ضائعاً من الضمير الإسلامي باسم مسلمي الصين، ملف موجود ومفقود، لكنّ مشكلته وعقدته أنّه موجود وسط أكثر بلاد العالم عزلة وتفرداً، بل وسط أضخم وأغرب محيط بشري عرفه التاريخ[12].

لا يخفي فهمي هويدي إعجابه بالمنجزات الصينية وبمعمارها الهندسي وخاصة بسورها العظيم، سور يراه تقابله أسوار عميقة غير مرئية في باطن كلّ صيني، مانعة كلّ اختراق، ومحبطة كلّ عبور وحاجبة الرؤية عن الجميع. وهي الحقيقة نفسها التي أدركها الباحث الألماني «الكونت كيسرلنج» بعدما أعيته ظاهرة اللاقرار لذلك المحيط الهائل، فكتب يقول: إنّ الصيني هو أعمق رجل في العالم[13].

يرى «فهمي هويدي» أنّ مسلمي الصين (ملف ضائع)، وهو الملف الذي خصّص له كتابه هذا، ولأجل ذلك وقف على باب الصين ستة أشهر كما يدّعي. فالقارئ لتاريخ الصين يدرك تماماً أنّ (المراسم) عند الصينيين شيء مقدّس لا تهاون فيه، ليس حباً للنظام والتزاماً بالدقة فقط، ولكنّه جزء من العقيدة الكونفوشيوسيّة الراسخة في الصين. ويمكن قراءة ابتسامة الفرد الصيني على أنّها طبيعة مغروسة في سلوكه ولا علاقة لها بالترحيب أو كما هو متعارف عنها لدى شعوب أخرى، ودهشة «هويدي» ظهرت في إيمان الصيني بصينيته، فحيثما حلّ لا يتخلى عن رموز ثقافته من طعام ولباس وسلوكات.

يؤرخ «فهمي هويدي» لتواصل العرب مع الصين تاريخياً، ويذكر أنّ كتب التاريخ سجلت أنّ أول عربي زار الصين هو تاجر عُماني «أبو عبيد الله القاسم»، الذي انطلق من عُمان باتجاه «كانتون» سنة (133هـ - 750م) لشراء الصبار والأخشاب وبعض اللوازم الأخرى، وهو الرجل الذي يقول عنه العمانيّون إنّه أول من أطلق عليه وصف (السندباد). ويذكر أنّ أول مدوّنة عربية عن رحلة بحرية إلى الصين كتبها تاجر اسمه (سليمان) كان كثير السفر إلى الهند والصين، وقال فيها: إنّ «كانتون» التي ينطقها الصينيون «قوانغتشو»، هي مرفأ السفن ومجمع تجارة العرب وأهل الصين معاً[14].

يقف «فهمي هويدي» عند قول «جمال حمدان» في كتابه بين «**أوروبا وآسيا، دراسة في النظائر الجغرافية**[15]» الذي يؤكد فيه أنّ الهند هندية أكثر منها آسيوية، أو هندية أولاً وآسيوية بعد ذلك. أمّا الصين فليست أكثر أجزاء آسيا آسيوية، وليست حتى صينية أكثر منها آسيوية، وإنّما آسيا هي صينية أكثر منها آسيوية في الحقيقة. أمّا لحظة اهتمام الصين بالإسلام فتعود إلى الوجود المبكر للمسلمين في الصين إلى مرحلة نشر الإسلام في آسيا، والذي حدث بفعل التجار المسلمين الذين تمركزوا في وسط البلاد وجنوبها.

12- فهمي هويدي، **الإسلام في الصين**، عالم المعرفة، عدد43، جويلية 1981، الكويت، ص 11

13- المرجع نفسه، ص 12

14- فهمي هويدي، **الإسلام في الصين**، ص 15

15- جمال حمدان، **بين أوروبا وآسيا، دراسة في النظائر الجغرافية**، عالم الكتب، 19973

وكانت كلمة (داشي) كافية للتعريف بهم، وعندما استقرّ المسلمون (داشي) واستوطنوا مع غيرهم من القادمين مناطق الوسط والجنوب، أطلق عليهم الصينيون اسماً مشتقاً من قومية مسلمي الغرب ذوي الأصول التركية (ويغور) على اعتبار أنّ جميعهم ينتمون إلى ملة واحدة، وكان هذا الاسم هو: «هوى» التي كانت «هويغور» في العصور القديمة. وبعدها استقر هذا الوصف على مسلمي الوسط والجنوب الذين أصبحوا يشكلون مع سلالتهم قومية مستقلة أضيفت إلى قائمة القوميات العديدة التي تحفل بها الصين اليوم.

وفي مرحلة الإسلام المبكر، يقول «هويدي» بعث الصحابي «عثمان بن عفان» برسله إلى ملك الصين آنذاك للتحية والتبليغ بالدين الجديد. وقد ظلّ مؤشر العلاقات العربية الصينية منذ ذلك الوقت في تصاعد، خاصة بعد فترة من ذهاب «أسرة تاخ»، وتولي أسرة «سونغ» (967هـ - 1168م) السلطة التي تشير سجلاتها إلى استقبال حوالي 49 بعثة عربية وفدت من حكام المسلمين إليها[16].

ومن المسلمين الذين برزوا في الحياة الصينية خلال عهد أسرة «يوان» كما يؤكد «فهمي هويدي»، هو «جمال الدين الفلكي»، الذي يرجع إليه الفضل في وضع تقويم جديد في الصين، واختراع سبعة أجهزة فلكية أهداها إلى الإمبراطور. وعليه كان مجمل اهتمام «فهمي هويدي» بالشأن الصيني ينحصر في تواصل المسلمين مع الصينيين وظروف انتشار الإسلام في ديار الصين، مستعيناً بالقراءات التاريخية وبالمحطات الأساسية التي عرفها انتشار الإسلام هناك.

ومن بين الباحثين العرب الذين اهتموا بالتقويم الصيني وخبايا أبراجهم الفلكية، علماً أنّ الصينيين اشتهروا بتقويمهم الفلكي الخاص الذي يعود إلى أصول ضاربة في عمق تاريخهم، نجد الباحثة «هالة عمر» التي خصّصت له كتاباً كاملاً بعنوان «**الأبراج الصينية**»، تعتبر فيه أنّ التقويم القمري الصيني هو أطول تقويم مرتب زمنياً في التاريخ، إذ يعود تاريخه إلى عام 2637 ق. م، عندما قدّم الإمبراطور «هوانج تاي» أول مدار للأبراج الصينية في الأعوام الستين الأولى من عهده ويستغرق مداره الكامل ستين عاماً، وهو مدراج يتكون من خمسة مدارات بسيطة يستغرق كلّ منها اثني عشر عاماً، ويبدأ المدار السابع والسبعون في 5 فبراير 1924 وينتهي في 1فبرير 1984، ويستخدم الصينيون اثني عشر برجاً لاثني عشر عاماً[17].

أمّا أصوله الأسطورية فترجعها «هالة عمر» إلى أسطورة سدارتا (بوذا) التي تسرد أنّ كلّ الحيوانات مطالبة لتودعه قبل رحيله من الأرض ولم يحضر لتوديعه سوى 12حيواناً، وكمكافأة لها، أطلق «بوذا» اسم كل واحد من هذه الحيوانات على عام في المدار طبقاً للترتيب الذي جاؤوا به، والذي كان كالتالي: الفأر، الثور، النمر، الأرنب، التنين، الثعبان، الحصان، الخروف، القمر، الديك، الكلب، الخنزير. وهكذا أصبح

16- فهمي هويدي، **الإسلام في الصين**، ص 41

17- هالة عمر، **الأبراج الصينية**، هلا للنشر والتوزيع، مصر، د ط، د ت، ص 09

لديهم اثنا عشر برجاً، يمثل كلّ برج منها حيوان، ويقال إنّ الرمز الممثل للعام الذي ولدت فيه له تأثير عميق على حياتك، وطبقاً لما يقوله الصينيون فإنّ هذا الحيوان هو الحيوان (المخبّأ في قلبك).

وخلال الستين عاماً يتحد كلّ برج مع العناصر الخمسة الأساسية - حسب الصينيين - وهي:

1- الخشب الذي يتبع كوكب المشتري

2- النار التي تتبع كوكب المريخ

3- الأرض التي تتبع كوكب زحل

4- المعدن أو الذهب ويتبع كوكب الزهرة

5- الماء ويتبع كوكب عطارد[18]

وكما في علم التنجيم الغربي، يصبح البرج الذي يولد فيه الشخص حسب «هالة عمر» مؤثراً على تشكل شخصية ما بصورة قوية، وتقسم أقسام الأرض في منظومة هذا التقويم إلى الاثنى عشر برجاً، مثل نظائرها في دول العالم، إلى أقسام موجبة وأخرى سالبة، وعلى هذا تكون أبراج الفأر والنمر والتنين والحصان والقرد والكلب مثلاً أبراجاً موجبة، بينما تكون أبراج الثور والأرنب والثعبان والخروف والديك والخنزير هي الأبراج السالبة، وعليه عند حلولها يعيش الصينيون الخوف والخشية. وهناك بعض السنوات التي يرهبها الجميع بسبب العنصر الذي تتحد معه، فمثلاً عندما جاء عام برج الحصان الناري آخر مرّة سنة 1967كثرت حالات الإجهاض الاختياري في آسيا، وانخفض معدل الإنجاب بشدة[19].

ورغم خصوصية حسابات تقويم الأبراج الصينية، إلا أنّه يبقى علامة فارقة على انفراد الوعي الصيني بالتقويم الفلكي الخاص بهم، والذي هو متشابك مع نظرتهم الأنطولوجية الضاربة في عمق تراثهم المحلي.

وبالدرجة نفسها من اهتمام بعض المثقفين العرب بالشأن الصيني، قدّم الباحث «محمد رمضان حسين» في مقدّمة ترجمته لكتاب «التحدي الصيني» للكاتب الصيني «فولفجانج هيرن» رؤيته الشخصية للظاهرة الصينية، وقد اعتبرها لحظة حاسمة من تاريخ البشرية نظراً لما تشهده من طفرة تنموية متميزة، وهي إشارة إلى التحول التاريخي في الاقتصاد العالمي والسياسة الدولية معاً. خاصة بعدما استطاعت وبعمل ذاتي أن تستعيد وضعها من جديد لتسيطر على الاقتصاد العالمي المعاصر في الوقت الحالي، وتنبأ بظهور نتائج قريبة مترتبة على هذا الصعود التاريخي حتماً ستكون هائلة، وسوف يشعر بها كلّ مستهلك وعامل ومدير

18- هالة عمر، **الأبراج الصينية**، ص 09

19- المرجع نفسه، ص 11

في الدول التي تأثرت بصعودها خصوصاً دول أوروبا وأمريكا واليابان، وسيكون للصين الجديدة دور مهم وخطير أيضاً في تغيير أحوال الإنسانية المعاصرة، وبفضل سياستها التنموية المحلية أصبحت أقوى من أي وقت مضى، لأنّ الأمة الصينية كما يرى «محمد رمضان حسين» كانت تعمل بالتجارة والتحصيل الاقتصادي منذ آلاف السنين، وفي الحقيقة موهبة الفرد الصيني هي التي لعبت دوراً ريادياً في إصلاح البلد وتقويته مع مرور الزمن، وعلى الخصوص منذ أن تقلد (دينج شياو بينج) مقاليد الحكم في الصين، وأصبحت الصين ملتزمة في عهده بالإصلاح العام[20].

إصلاحات ساهمت بشكل فعال في ارتفاع معدل النمو الاقتصادي السنوي في الصين الذي أصبح اليوم هو الأعلى في العالم، ويرجع هو الآخر سبب سرعة هذا النمو إلى عودة عشرات الآلاف من الباحثين الصينيين الذين درسوا في جامعات غربية، وأسسوا الكثير من المؤسسات والبرامج الاستثمارية الناجحة في عدة مدن، منها هونج كونج وتايوان وشنغهاي، عن طرق الجمع بين المعرفة وقنوات رأس المال، والأعداد الهائلة من العمالة الرخيصة والأسواق الضخمة التي ساهمت بشكل فعّال في انتعاش حركة الاقتصاد، وبفضل جملة هذه المؤهلات صارت صين اليوم مصنع العالم[21].

وفي سياق الشأن الصيني أيضاً تناول الكتاب «السيد يسين» في كتابه «**الكونية والأصولية وما بعد الحداثة**» أسئلة القرن الحادي والعشرين» التحولات العميقة التي شهدتها الصين في القرن الماضي، وتحليل الثورات الشعبية والداخلية التي ساهمت في نهضة الصين المعاصرة، حيث رأى فيه أنّ الصين قامت بثورة أسطورية قادها «ماو تسي تونج»، وهي ثورة تسرد ملحمة شعب متنوع الأعراق فرض عليه التخلف عقوداً عديدة من السنين.

الصين في نظر «السيد يسين» تعتبر نموذجاً فريداً في التنمية الاشتراكية، حيث حاولت أن تؤلف تأليفاً خلّاقاً بين الماركسية الغربية والتقاليد الصينية القديمة والعريقة، وساعدها على ذلك طبيعة ثقافة قائدها التي بها استطاع استيعاب التاريخ الحضاري البالغ الثراء لأمّته، كانت كافية عن استيراد الأفكار الجاهزة، ولذلك تبنى الماركسية، وأدرك مبكراً أهمية الجدل الاجتماعي، ومحورية عملية التناقض بين القديم والجديد. وهي مكتسبات وظفتها الصين لتربعها على المسرح العالمي بنجاح كبير برغم عداء الغرب لنموذجها، واستطاعت دعم دول العالم الثالث في مسيرتها التحريرية، وساعدت كثيراً منها في التحرر من الاستعمار والتخلص من الهيمنة الأجنبية، وما لبثت الصين أن فاجأت العالم قاطبة بثورتها الثقافية والتي كانت مثالاً فريداً في مجال تجديد النظم السياسية والمعيشية، ومن خلال الثورة على البيروقراطية الحزبية والترهل السياسي أعطت العالم كله دروساً بالغة القيمة في مجال أهمية التحديث السياسي وضرورة تجديد دماء النخبة السياسية[22].

20- فولفجانج هيرن: **التحدي الصيني**، ترجمة محمد رمضان حسين، كتاب العربية (14) ط1 2011، ص 10

21- المرجع نفسه، ص 11

22- السيد يسين، **الكونية والأصولية وما بعد الحداثة «أسئلة القرن الحادي والعشرين»** ج2، المكتبة الأكاديمية 1996، ص 23

يعتبر الكاتب «السيد يسين» أنّ رحيل القائد «ماوتسي تونج» أدخل الصين في صراعات متعددة على الصعيد الداخلي دار بين دوائر النخب الصينية بحثاً عن النموذج الأمثل للتطور في عالم سريع التغير، وكان القرار التاريخي الذي تبنته الصين بعد رحيله هو التحول التدريجي المحكوم إلى اقتصاد السوق والتفاعل الإيجابي الخلاق مع الاقتصاد العالمي.

الصين اليوم في نظره، تقدّم لنا نموذجاً بارزاً لعدم تعارض التنمية والانفتاح مع السيادة الوطنية وخصوصية الثقافة المحلية، خصوصاً ونحن نعيش في عالم كوني جديد ينزع إلى اعتبار السيادة الوطنية بالمفهوم التقليدي أمراً مضى زمنه، إلا أنّ الصين شقت طريقها في المجتمع الكوني الجديد متشبثة بسيادتها الوطنية وبدون انغلاق، وبدون انفتاح عشوائي من شأنه أن يفتت وحدة المجتمع ويضعفه.

الكاتب «عبد العزيز حمدي» في مقدمة ترجمته لكتاب «**الصينيون المعاصرون، التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي**» لصاحبه «ووبن» أظهر إعجابه الشديد بالتحولات الحضارية المتنامية في الصين الحديثة، وبطبيعة الرجل الصيني وسلوكاته الحضارية المنضبطة وحبه للعمل وتفانيه في الإتقان وابتعاده عن الحيلة والغش، وهي كلها ميزات جعلت منه قوة حيّة في إحداث الطفرة الصينية المعاصرة، كما توقف في مقدمة هذا الكتاب عند الأدوار التحفيزية الأولى التي لعبتها الفلسفة الماركسية واللينينية معاً بكشفهما لمفهوم العمل في نطاق المساواة وضرورة العمل الجماعي لصالح بناء الدولة، وأيضاً تشريحهما المستفيض للانتقال التاريخي لوسائل الإنتاج التي تغير من مفهوم العمل، وفي هذا الشأن يقول: لا أحسب أنّ هناك باحثاً أو كاتباً تصدّى للكتابة عن الصين إلا وتملكه الحيرة والدهشة من هذا البلد الغريب، فالصين حضارة عريقة تضرب جذورها في أعماق التاريخ، وتقاليد راسخة تراكمت في أغوار الصينيين منذ أقدم العصور، وتاريخ يمتد من الماضي إلى المستقبل ويجمع بين الجد والحفيد وكتلة إنسانية هائلة (هناك صيني بين كلّ خمسة أشخاص في العالم) ما يزال يكتنفها الغموض وتضمّ أعجب شعب عرفته البشرية، كلّ هذا ولا شكّ خصائص تنفرد بها الصين عن غيرها من شعوب المعمورة[23].

تحاول الصين اليوم أن تصوغ منظومتها الخاصة في التنمية التي تختلف عن التنمية الغربية كلّ الاختلاف، لكي تحافظ على روح حضارتها الضاربة في القدم لآلاف السنين، وتكتشف جذورها في ضوء الأحوال الموضوعية التي تمرّ بها في الوقت الحاضر، كما تسعى إلى اختيار نموذج التحديث الخاص بها في حذر شديد، وترفض أن تقلد النموذج الغربي تقليداً كاملاً، انطلاقاً من إدراكها أنّ التحديث لا يعني اتباع الغرب كله فيه، بما أنّ كلّ مجتمع يختلف عن غيره من حيث الظروف التاريخية والبيئة الجغرافية وظروف العيش والثقافة، والتي تراعي معرفة أحوال الصين التي تشتمل على التاريخ الصيني والأحوال

23- ووبن، **الصينيون المعاصرون، التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي**، ترجمة عبد العزيز حمدي، عالم المعرفة، العدد 210، 1996 الكويت، ص 07

الراهنة والبيئة الجغرافية الصينية وقوة الدولة وثرواتها الطبيعية وانتشار الصناعة والثقافة التقليدية الصينية والطبيعة السيكولوجية للصينيين والعادات الشعبية.

يُعدّ دخول الماركسية إلى الصين بعد ثورة «ماو» حدثاً كبيراً في تاريخ الثقافة الصينية في القرن العشرين، وفي عملية تحولات التحديث الصيني، وقدومها غيّر ملامح المجتمع الصيني تغييراً جذرياً وللهيكل الفكري للصينيين بفضل قوتها الفكرية الهائلة، وظفرت بمكانة مهمّة في تشكيل الثقافة الصينية الحديثة وأصبحت تتبوأ المكانة الرئيسة في تكوين الوعي.

حدث تسرب الفلسفة الماركسية إلى الصين كنتاج لعملية الصدام بين الثقافة الصينية والغربية وتبادلهما في العصر الحديث وتشابكها مع الثقافة الروسية، أمّا تبنّي الماركسية في الصين اليوم فهو نتيجة الاستجابة لتحولات التحديث وضغوطات التحول الشعبي، ومنذ العصر الحديث تدفقت المعارف نحو الشرق، وانتقلت الأفكار الاجتماعية والفلسفية المختلفة.

يؤرخ الباحث «السيد يسين» لبداية التسرب الماركسي للصين، الذي كان بفعل تأثير ثورة أكتوبر الروسية على الصين، والتي أدت إلى اهتمام الصينيين القوي بالماركسية وبأيديولوجيتها، وكردّ فعل على الأيديولوجية الرأسمالية المتمركزة في الغرب، حيث تمسكت الجماهير الكادحة على حين غرة بثورة أكتوبر التي تهدف إلى تخريب الرأسمالية العالمية وتدمير الاستعمار العالمي، وكان ذلك النداء في آذان الصينيين أكثر ثقلاً وإيقاعاً وخطورة». قال «ماو تسي تونغ»: اكتشف الصينيون الماركسية بعد أن قام الروس بتعريفها، وبمجرد أن اندلعت ثورة أكتوبر أرسلت لنا الماركسية واللينينية وساعدت العناصر التقدمية في الصين والعالم كله، وطبقت تلك الثورة وجهة النظر البروليتارية إلى الكون باعتبارها أداة لمراقبة مصير البلاد، وقامت بإعادة التفكير في مشكلتها الذاتية من جديد» وفي ظل تأثير ثورة أكتوبر قام «لي داجاو» و«تشين دوشيو» وغيرهما من المثقفين التقدميين بتعريف الماركسية وإدخالها ونشرها في نطاق واسع وبحماسة عالية[24].

يعيد الكاتب «السيد يسين» يقظة الصينيين إلى ما أحدثته الثورة الروسية سنة 1917 في وعيهم العام حيث أيقظتهم من سباتهم، وتعلم الصينيون منها الشيء الجديد الذي هو الماركسية اللينينية، ومنذ ذلك الحين تغير اتجاه الصين نحو العالم. وانتشار الماركسية على نطاق واسع في الصين جعل الصينيين يتحولون من السلبية إلى المبادرة من الناحية الفكرية، وتأملوا مشكلة أنفسهم من جديد، وذلك لأنّ الماركسية منحت الصينيين نوعاً من المبادئ الجديدة ونظام المعاني وطريقة التفكير الجديدة.

24- ووين، **الصينيون المعاصرون، التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي**، ص 256

وفيما يتعلق بتعرّف المسلمين والفرس على الصين، فقد أعادها الكاتب «زكي محمد حسن» في كتابه «**الصين وفنون الإسلام**» إلى أنّ جذور ذلك تعود إلى ما قبل الإسلام أصلاً، والذي حدث بفعل التجارة التي كانت رائجة مع الصين والهند وموانئ البحر الأبيض المتوسط، واتسعت هذه التجارة في القرن السادس الميلادي بطريق جزيرة «سرنديب»، وزاد اتساعها في القرن السابع وأصبح ثغر «سيراف» على الخليج مركزاً تجارياً يخصّ توزيع البضائع الصينية في بلاد فارس والعرب، ويستشهد في ذلك بما ذكره «المسعودي» أنّ السفن الصينية كانت تجوب نهر الفرات.

أمّا تجارة الحرير فقد كانت مزدهرة بين الصين والعرب من جهة وبينها وبين روما وبيزنطة من جهة أخرى في ما يعرف تاريخياً بطريق الحرير الذي يمرّ عبر أواسط آسيا باتجاه أمم الغرب. وكان الصينيون قبل الإسلام كما يقول «زكي محمد حسن» يقومون بحملات تجارية لنقل المصنوعات الزخرفية والمنسوجات إلى بلاد العرب وبلاد فارس، وأقاموا فيها مصانع النسيج لأقمشة صينية نفيسة وزخارف رفيعة[25].

جاء ذكر المسلمين في المصادر الصينية لأول مرّة حسب الكاتب «زكي محمد حسن» في بداية القرن السابع الميلادي، حيث أشار المؤرخون الصينيون إلى الدين الجديد، وإلى مبادئ الإسلام، وأنّه لا وجود للتماثيل في معابدهم ولا أصنام ولا صور». وفي السياق نفسه أشار الكاتب الصيني «شاويوكوا» إلى علاقات تجارية بين الصين والشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري، وقد أحصى تلك العلاقات في كتابه (**شوفان شي**)، وتمّت ترجمته إلى الإنجليزية من قبل هرث وروكهل سنة 1911[26].

اختلف الباحثون حول بداية دخول الإسلام إلى الصين، فمنهم من قال إنّ رجلاً من الصحابة يُدعى «وهاب بن رعشة» سافر إلى البلاد الصينية بعد هجرة النبي إلى المدينة، وفيها تعلم اللغة الصينية، ودرس عاداتهم وأخلاقهم، ثم أخذ ينشر دينه الحنيف فقوي شأنه والتف عليه خلق كثير. وقيل إنّه قابل الإمبراطور (تاي تسونغ) 628 م، ثم مات بعد أن عاش طويلاً مبجلاً فيها. وقال آخرون: إنّ علاقة العرب بالصين تبتدئ من عهد الفتوحات أيام حارب الأمير «قتيبة بن مسلم» سنة 706م أهالي (الصغد) و(فرغانة) الذين كانوا تابعين للصين، وكان أميرهم يدعى «مورنباغون»، وقال «البلاذري» في تأريخه للحظة دخول الإسلام إلى الصين: إنّ «الجراح الحكمي عامل خراسان أرسل في مبدأ حكم الخليفة «عمر بن عبد العزيز» جيشاً إلى الصين بقيادة «عبد الله بن معمر اليشكري»[27].

أمّا فيما يخص مكانة الصين اليوم في العالم فقد أرجعها الكاتب «هادي العلوي» في كتابه (**المستطرف الصيني**) إلى عدة أسباب، لعل أبرزها هو انفتاح الصين على العالم بأسره، واتخاذ المسافة نفسها بينها وبين

25- زكي محمد حسن، **الصين وفنون الإسلام**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، ص 11

26- زكي محمد حسن، **الصين وفنون الإسلام**، ص 18

27- نقلاً عن أتربي أبو العز وعبد العزيز حمد، **نبذة عن الصين**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، ص 27

جميع دول العالم، لكي لا تربح العداوة مع أيّ طرف كان، ممّا حظيت من لدن الغرب باهتمام واسع، فقام كتابه بترجمة أدبياتها، وخُصصت لها دوريات متخصصة، حتى صار كلّ ما يتعلق بها يشهد إقبالاً واسعاً من قبل القراء والمثقفين.

اتصل الغرب بالصين عن طريق المستكشف (ماركو بولو) في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر، ولم ينقل عن الصين ما يتعدى وضعها السياسي تحت الحكم المغولي آنذاك وأوصاف لبعض المدن الكبرى، وفي العصور الإسلامية كانت الصين موضع علاقة تجارية تمثلت فيها أسس البناء السلمي للتجارة العالمية التي توزعت يوم ذاك بين العالمين الصيني والإسلامي[28].

الصين وتحديات العصر

رغم ما تشهده الصين اليوم وهي تتقدم على مشارف القرن الحادي والعشرين وبوتيرة متسارعة وبأحوال وأشكال جديدة، بعد تحقيق نجاحات متميزة في القرن الماضي حيث جعل الشعب الصيني يحطم هيكل الثقافة التقليدية النمطية التي ظلت لصيقة به لعدة قرون، إلا أنّها باتت تعيش جملة من المشاكل القومية الداخلية والخارجية على عدة جبهات، منها ما يخصّ المنافسة العالمية الشديدة عليها، ومنها ما يتعلق بمشاكل البيئة، وظهور نزعات انفصالية في كثير من مناطقها خاصة في التبت، ومشاكل حقوق الإنسان والصراع الدائم مع مناطق الحكم الذاتي كـ «تايوان» مثلاً، وهي كلها أزمات جلبت لها انتقادات واسعة من أطراف داخلية وخارجية، على ضوئها تحاول النخب الصينية بشتى الوسائل حلحلتها، وهنا يتساءل الكاتب «إبراهيم نافع» عن مستقبل الصين: هل تتجه الصين إلى المستقبل بلا مشاكل كبيرة أو خطيرة؟

يجيب بالنفي، خاصة وأنّ حاضر الصين محكوم بعقلية المنافسة، وعلى احتكار الأسواق التي تصل في بعض الحالات إلى مستوى الحروب التجارية، وهي تواجه مشاكل عدة ونزاعات كثيرة أبرزها النزاع مع تايوان التي تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الظاهر أنّ هذه الأزمات وبمختلف أبعادها تضاف إلى دواعي القلق الإقليمي إزاء الصين، وبهذه الصورة تكون تايوان والتبت ومشاكل الأقليات المسلمة واحدة من مشكلات المستقبل الجوهرية للصين، بل إنّ هذه المشكلة تنطوي على احتمال أن تسيء الصين الحساب في معاملتها مع ملف تايوان، إضافة إلى العلاقات المتوترة والدائمة مع اليابان المجاورة والولايات المتحدة الأمريكية والتي تعود أسبابها إلى المضايقات العسكرية ونزاع على بعض الجزر[29].

28- هادي العلوي، **المستطرف الصيني**، من تراث الصين، 1994، دار المدى للثقافة والنشر، ص 07

29- إبراهيم نافع، **الصين في نهاية القرن العشرين**، ص 149

أزمات جعلت الصين اليوم في مفترق الطرق، وتعيش في ظلها مرحلة انتقالية تكتظ بالمشاكل والتناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والمتجذّرة في طبقات المجتمع الصيني وهو يصارع من أجل ثباته وسط ارتجاجات العالم الكثيرة.

لائحة المراجع والمصادر

- ووبن، **الصينيون المعاصرون، التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي**، ترجمة عبد العزيز حمدي، عالم المعرفة، العدد 210، 1996 الكويت.
- زكي محمد حسن، **الصين وفنون الإسلام**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012
- هادي العلوي، **المستطرف الصيني**، من تراث الصين، 1994، دار المدى للثقافة والنشر.
- لورانس هارزون وصامويل هنتنغتون، **الثقافات وقيم التقدم**، ترجمة شوقي جلال، المركز القومي للترجمة، العدد 535/2 ط2، 2009، القاهرة.
- مونيس بخضرة، **تاريخ الوعي «مقاربات فلسفية حول جدلية ارتقاء الفلسفة بالواقع»**، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2009
- إبراهيم نافع، **الصين في نهاية القرن العشرين**، ط1، 1999، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة.
- فهمي هويدي، **الإسلام في الصين**، عالم المعرفة، عدد 43، جويلة 1981، الكويت.
- هالة عمر، **الأبراج الصينية**، هلا للنشر والتوزيع، مصر، د. ط، د. ت.
- فولفجانج هيرن: **التحدي الصيني**، ترجمة محمد رمضان حسين، كتاب العربية (14) ط1، 2011
- السيد يسين، **الكونية والأصولية وما بعد الحداثة «أسئلة القرن الحادي والعشرين»** ج2، المكتبة الأكاديمية 1996

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016